مجلة فصل الخطاب Journal of Faslo el-khitab
ISSN: 1071-2335/ E-ISSN: 2602-5922/ Legal Deposit N°: 2012-1759
مجلد 10، عدد رقم: 04، ديسمبر 2021، صص: 97 - 114

تاريخ الاستلام (2021/10/22) تاريخ القبول (2021/11/26) تاريخ النشر (2021/12/30)

الرّواية والتّحليل النّصي عند حسن المودن
من الرّؤية المنهجية إلى الممارسة النّقدية

The Novel and Textual Analysis of Hassan Al-Moden: from Systematic Vision to Critical Practice

أحمد الحاج أنيسة

جامعة ابن خلدون- تيارت ahmedlhadj.anissa@yahoo.fr

ملخص:

إنّ غايتنا الأساسية من هذا المقال، تتلخص في البحث عن مرجعيات التحليل النصي عند حسن المودن، الذي جمع في رؤيته المنهجية بين التحليل النفسي والنظريات النصية، لإعادة قراءة فرويد وتأويله على ضوء النظريات اللسانية الجديدة، والبحث عن مدى فعالية هذا التركيب المنهجي في الكشف عن المسكوت عنه في النصوص الروائية.

الكلمات المفتاحية: التّحليل النّصي- التّحليل النفسي- الكتابة- لاوعي النّص- بوليفونية المحكي.

Summary:

Our main purpose of this article is summarized in the search for the textual analysis references by Hassan Al- Moden, who in his methodological vision combined psychoanalysis and textual theories, to re-read Freud and interpret it in the light of new linguistic theories. In so doing, he searched for the effectiveness of this methodological structure in revealing what is ignored in the narrative texts.

Keywords:Textual analysis; psychological analysis; writing; the subconscious of the text; spoken polyphony.

المؤلف المرسل: أحمد الحاج أنيسة ، الإيميل: ahmedlhadj.anissa@yahoo.fr

مقدّمة:

لقد عرف النّقد الروائي في المغرب الأقصى تحولات ومنعطفات كبرى، شكلت مساره الذي، ارتبط بزاويتين أساسيتين، وهما: علاقته بالنص الروائي والخلفية الإبستمولوجية التي انطلق منها.

المرحلة الأولى من هذا المسار، هي لحظة ما قبل ميلاد الراوية المغربية المعاصرة والنقد المواكب لها، وفيها كان المثقف أو مشروع الناقد الروائي بالمغرب، يبحث عن موضوعه الروائي المفقود في بقاع المشرق العربي، أما المرحلة الثانية فكانت موازية للحظة ميلاد الراوية الأولى، فاتّسمت بالانطباعية والتركيز على السياقات التاريخية المحيطة بالعمل الروائي.

ومع هيمنة المرجعية الأيديولوجية برزت مرحلة النقد الواقعي الذي اهتم بمضمون العمل الروائي وقيمته الأيديولوجية، هذا ما تجلى لنا في أعمال مجموعة من النقاد نذكر منهم: أحمد اليابوري ومحمد برادة وإدريس النّاقوري ونجيب العوفي وعبد القادر الشاوي. وضمن سيرورة المثاقفة انفتح النقد المغربي على منجزات البنيوية التكوينية، والشعرية البنيوية وشعرية باختين والسيميائيات وجمالية التلقي، فسادت بذلك مرحلة النقد التجريبي أو النقد المنهجي.[1]

ويمثل النقد التجريبي جيلا جديدا طموحا له تكوين جامعي، يراهن على تطوير المكتسبات السابقة، باحثا لهذا النقد عن هوية جديدة، من خلال الممارسة والتراكم النوعي في شتى الآفاق النظرية والمنهجية[2]، وخير من يمثل هذا التوجه الناقد المغربي "حسن المودن"، الذي دعا إلى تأسيس "مقاربة نفسانية تجمع بين التحليل النفسي والنظريات النصية، مع ضرورة تفعيل هذه الإمكانية بمواكبة التطورات التي يعرفها التحليل النفسي من جهة، وتلك التي تعرفها النظريات اللسانية والنصية والتلفظية من جهة ثانية"[3]. فما مدى فعالية هذا التركيب المنهجي في محاورة النصوص الروائية والإصغاء إليها؟ وهل وّفق "حسن المودن" في الوصول إلى الآخر الموجود في داخل الذات الكاتبة والقارئة، من خلال استبدال مفهوم لا وعي المبدع - الذي نادى به التحليل البيوغرافي- بمفهوم لا وعي النص؟

هذا ما سنحاول الإجابة عليه من خلال وقوفنا على المنطلقات النظرية والمرجعيات الفكرية المؤسسة للتحليل النصي عند "حسن المودن"، والبحث عن مدى قدرته على تأويل النص الفرويدي على ضوء النظريات النصية كالموضوعاتية والأسلوبية.

1-منطلقاته النّظرية:

إنّ الربط بين التحليل النفسي والأدب أظهر إلى الوجود منهجين أساسيين: الأول وهو السائد في الدراسات النقدية، يطبق التحليل النفسي على الأدب، أما المنهج الثاني فهو قليل في الدراسات النقدية، ينطلق من أنّ العمل الأدبي يتقدم النظريات النفسية الحديثة، واليوم يبدو المنهج الثاني أكثر قوة مقارنة بالأوّل، إذ لم يعد مقبولا إسقاط نظرية خارجية على النصوص الأدبية، خصوصا بعد أن ظهرت دراسات تعمل من أجل إنتاج النظرية انطلاقا من النصوص، وترفض أن تجعل من الأدب مكانا تؤكد من خلاله فرضيات التحليل النفسي ونتائجه.[4]

وضمن الاتجاه الثاني، يقدم "حسن المودن"- من خلال كتابه الموسوم بـ "الرواية والتحليل النصي"(قراءات من منظور التحليل النفسي) - مقترحا منهجيا، يسمح لنا بإدراك العناصر المختلفة التي تشكل النص الروائي " من موضوعات وأشكال وتقنيات، وأساليب وتخييلات ولغات، ويجعل من الكتابة فضاء تخييليا يشرع نوافذه على المناطق الملتبسة، التي تحف مشاعر وتجارب الذات (الكاتبة والقارئة)، في عالم يمور بالتحولات والارتدادات العنيفة".[5]

إنّ هذا المقترح المنهجي حسب منظور "حسن المودن"، هو ضرورة فرضتها تحولات الرواية العربية من خمسينيات وستينيات القرن الماضي إلى اليوم، حيث بدأت" تشهد نماذج روائية تتكاثر وتتنوع، وهي تعلن عن ميلاد محطة جديدة في الكتابة الروائية، وهي لحظة التحرر من التحديدات والتقنيات التقليدية للكتابة والخروج إلى فسحة التّعدد والتنوع في التجليات والتحققات النصية، لتجعل من النص مجالا لإبلاغ صوت الكينونة المتكلمة، خارج أسيجة الواقع الحريصة على تنظيم وقولبة العلائق وسنن القول بين النّاس"[6].

ولأنّ النّص الروائي دائم التحول، فهو الذي يفرض منهج قراءته وزاوية مقاربته، التي يحددها المودن في الواقع السري للإنسان الذي يتجسد في اللغة الروائية " فالأدب هو اللغة الأخرى التي ينبغي النظر إليها على أنّها عمل واشتغال يقع بين الرغبة والمحكي، وتسمح بإسماع كلام آخر غير الكلام المألوف، فاللغة الأدبية لا تجعلنا نسمع أصوات الآخرين فقط، بل هي اللغة الأخرى التي تكاد تتخصص في إسماع ذلك الآخر الموجود في الداخل، في داخل الذات الكاتبة والقارئة"[7]. وبهذا تصبح الكتابة لديه فعلا لاشعوريا أولا إراديا، ومخزنا

لأسرارنا أو ما يعرف بمنطقة الهو أو المنطقة المظلمة عند الإنسان، كما أنّ هذا الفضاء الإبداعي هو فضاء مشترك ذاتوي يجمع القارئ بالإنسان.

يستمد حسن المودن منظوره للكتابة الروائية من رؤية " جاك لا كان " الذي أعاد قراءة "فرويد وسويسر" بطريقة سمحت له بفتح آفاق جديدة أمام حقلي: التحليل النفسي واللسانيات، لذا فهو يدعو إلى" تحليل النظام الرمزي للغة بواسطة تفكيك وحداتها، وذلك للوصول إلى اللاشعور الذي لا وجود له في الواقع إلاّ من خلال النظام الرمزي للغة، فالمحلل النفسي ذاته لا يمكنه أن يصل إلى حقيقة اللاوعي عند مريضه إلاّ من خلال اللغة التي يعبر فيها عن نفسه، ولهذا يشكل اللاشعور في نظره بنيّة ملازمة للغة"[8].

2-مرجعياته الفكرية:

يدعو" حسن المودن "إلى فتح آفاق جديدة في رؤيتنا للعلاقة التي تربط النفسي بالأدبي، وإعادة النظر في العناصر الأساسية لهذه العلاقة: فرويد، والتّحليل النّفسي، والأدب، هذا ما توصل إليه من خلال اطلاعه على ثلاث دراسات معاصرة، وهي: التحليل النفسي والأدب لـ جان بيلمان نويل"GeanBellemin- Noèl " ومقال "فرويد" شاعر اللاشعور لليديا فليم "Lydia Flem " ودراسة بيير بيار " Pierre Bayard" هل يمكن تطبيق الأدب على التحليل النفسي"؟.

أ- التّحليل النفسي والأدب لجان بيلمان نويل:

ترجم "حسن المودن " دراسة "جان بيلمان نويل " الموسومة بـ " التّحليل النّفسي والأدب"، الصّادرة سنة 1978 إلى اللّغة العربية، وتكمن أهمية هذه الدراسة في تقديمها" لمنهج جديد في النقد النفسي سماه" التحليل النصي"، يسمح بالانتقال من الاهتمام بمؤلف العمل الإبداعي إلى تركيز النظر على العمل الأدبي نفسه"[9].

لقد وجه "بيلمان نويل" انتقاده للتحليل الأدبي الفرويدي باعتباره "تحليلا نفسيا بيوغرافيا Psychobiographie ولم يسلم النقد النفسانيLa psychocritique عند شارل مورون"Charles- Mauronمن نقد " نويل "، رغم محاولة " مورون " التركيز على النصوص لأنّه في نظره ينتهي إلى وصل قراءتنا للنص بـ لاشعور المبدع، والبديل عند "نويل" هو ما سماه بـ "التحليل النصي" Textanalyse ويلعب فيه مفهوم لا شعور النص دورا أساسيا"[10].

إنّ أهمية هذه الدراسة - في منظور " حسن المودن "- تكمن في كشفها عن نقاط التقاطع والاشتراك بين الأدب والتحليل النفسي" فالأدب يقدم وجهة نظر حول واقع

الإنسان ووسطه، وحول الكيفية التي يدرك بها الإنسان هذا الوسط والروابط التي يقيمها معه، والتحليل النفسي يقدم نفسه بطريقة مماثلة. فالأدب والتحليل النفسي يشتغلان بالطريقة نفسها، فهما يقرآن الإنسان في حياته اليومية وداخل قدره التاريخي، ويسعيان إلى بلوغ حقائق بالحديث عن الإنسان وهو يتحدث"[11]، لذلك فلكل نص أدبي لا شعوره الخاص، والمدخل الوحيد للوصول إليه هو إهمال ذلك الدور الرئيسي الذي كان يقوم به المؤلف في كل دراسة نقدية نفسانية وبيوغرافية، فقد وجد في نفسه نفورا من تلك التعليقات والأخبار والصور التي كانت ترسم للكتاب قبل الدخول إلى دراسة أعمالهم، ولذلك اتخذ موقف إلغاء المؤلف عند قراءة العمل الأدبي، فما أقره هو شيء يخصني، ما دمت أشتغل على الكلمات والجمل والصفحات والأجزاء[12].

يقوم منهج "جان بيلمان نويل " على فرضية "لاوعي النص"، وهي "وحدها الكفيلة بإحداث تحول في النقد النفسي، من الاهتمام بلاوعي الكاتب إلى التركيز على لاوعي النص، فقراءة لاوعي النص تقتضي أن نضع جانبا الإنسان الكاتب فلا نهتم به، وأن ننطلق من أنّ كل نص أدبي يكون مخترقا من طرف خطاب لا واع يمكن وصف عمله الذي يتحقق داخل النص. إنّ النقد النفسي التقليدي في نظر " جان بيلمان نويل " كان يبحث عن معنى سري وكنز مختلف، أمّا التحليل النصي فهو لا يريد أن يعرف بل يريد أن يرى، وأن يلاحظ الكيفية التي تنتج بها هذه القوة اللاواعية خطابا ما، أي الكيفية التي يبلغ بها اللّاوعي شكلا دالا"[13].

لذا يتبنى "حسن المودن" موقف ورؤية "نويل" في دراسته " الرّواية والتّحليل النّصي"، ويدعو إلى قراءة النّص بعيدا عن مؤلفه، هذا ما التزم به في رسالته الجامعية الصادرة سنة 2002 والمعنونة بـ" لاوعي النص في روايات الطيب صالح ".

ب- مقال ليديا فليم " فرويد شاعر اللاشعور":

الدّراسة الثّانية التي اعتمد عليها "حسن المودن " هي مقالة مركزة جريئة، صدرت سنة 1998 تحت عنوان " فرويد شاعر اللاشعور " لصاحبتها " ليديا فليم "، وهي توضح أنّ "فرويد" لم يكن مجرد طبيب أو عالم، بل إنّه أديب أو كاتب بالمعنى المعاصر، مؤكدة أنّ الطريق التي تقود المحلل النفساني إلى اللاشعور تمر عبر لعبة من الكلمات والترابطات التي تنسج السرد وتنتقل بشكل مدهش من مجال إلى آخر، من المرئي إلى المجرد، من اليومي إلى النظري، من العلم إلى الشعر[14].

ج- كتاب بيير بيار" هل يمكن تطبيق الأدب على التحليل النفسي؟ ":

جمع بيير بيار "Pierre Bayard "بين خاصيتين جوهريتين: هو محلل نفساني وأستاذ للأدب الفرنسي بجامعة باريس الثامنة، وأصدر ثمانية كتب لفتت انتباه القراء والمهتمين والمختصين في التحليل النفسي والأدب، نظرا إلى اكتشافاتها ومراجعاتها للأحكام والمسلمات[15].

يقترح " بيير بيار" في كتابه الموسوم بـ" هل يمكن تطبيق الأدب على التحليل النفسي؟ " الصادر سنة 2004، نظرية جديدة" تطبيق الأدب على التحليل النفسي، فإذا كان المألوف هو تطبيق التحليل النفسي على الأدب، فإنّ " بيير بيار" يدعونا إلى قلب الأدوار، وذلك بأن نجرب تطبيق الأدب على التحليل النفسي. وهناك العديد من الأسباب التي تدعوه إلى مراجعة العلاقة بين الاثنين، ومن أهمها أنّ النقد الأدبي الذي يطبق التحليل النفسي على الأدب قد أصابه الإفلاس، ويعود السبب إلى أنّ تطبيق التحليل النفسي على الأدب يؤكد النظرية التي تم الانطلاق منها، ولا يضيء العمل الأدبي، وبالعكس إذا تمّ الاعتماد على منهج يقلب الأشياء يكون بإمكان الأديب أن يقول أشياء عديدة للتحليل النفسي[16].

لذا هاجم "حسن المودن" النقد البيوغرافي، لأنّه" محدود الإشكالية، فهو لا يسعى إلى وضع مفتاح لإدراك خصوصية العمل الأدبي، لأنه يستهدف المحتويات فقط، ولأنّه كما يرى الناقد الأمريكي "تيري إيجلتون" تيار نقدي يتحرك بالضبط داخل نفس دائرة المهتمين بـ "قصد المؤلف" في العمل الأدبي، سواء كان قصدا واعيا أو لاواعيا"[17]. فعلى كل ناقد نفسي أن ينطلق من ضرورة تطبيق الأدب على التحليل النفسي وليس العكس، وأن ينتبه باستمرار إلى الدوافع اللاواعية التي تقف خلف قراءته النقدية، أي أن يسائل في كل مرة فعل القراءة نفسه، وأن يسعى إلى محاورة النصوص والإصغاء إليها، وأن يجعل من التخييل عنصرا فعالا داخل النقد نفسه.

3- المقاربة الموضوعاتية النفسانية والمتن الروائي المدروس:

جمع " حسن المودن " في القسم الأول من دراسته بين المقاربة الموضوعاتية والمقاربة النفسانية، بغية مساءلة العلاقة الإشكالية القائمة بين الإنسان والكتابة، وإعادة طرح الأسئلة من جديد، ماذا يكتب الروائي؟ ماهي الموضوعات الأكثر إلحاحا وحضورا؟ ماذا يعني أن يكتب الإنسان؟ ما حاجة الإنسان إلى هذه اللغة الأخرى التي نسمها الأدب؟ ماهي الحوافز التي تدفعه إلى ممارسة الكتابة؟[18].

تشترك النصوص الروائية التي اشتغل عليها " حسن المودن " في القسم الأول من دراسته في "وعيها النظري بالكتابة وبإشكالاتها، هذا الحضور يبرز في التعامل مع الكتابة، باعتبارها قيمة في ذاتها، وبوصفها أفقا للمحتمل والمتخيل وحضور المكونات السير ذاتية بوصفها عناصر تكوينية في الخطاب الروائي "[19].

تناول "حسن المودن" في القسم الأول من دراسته ثابتا واحدا وهو الكتابة، ومجموعة من التحولات أو التيمات في عناوينه الفرعية، وهي: العنف، الحداد، اللامعقول، الصحراء، المكبوت، مكبوت الذات، السفر، جدل الجسد، المرأة. لذا كانت النصوص الروائية المختارة نماذج روائية مناسبة لتحولات الكتابة الروائية، فهي نتاج "للحظة معانقة التجريب، أي لحظة التمرد والخروج من خانة الكلاسيكية، والبحث خارج ثوابت الجنس وأوهام التاريخ عن كتابة مفتوحة، وهي لحظة اكتشاف الروائي للرواية بوصفها نواة للأدبية، فضلا عن إعادة اكتشاف السارد -في السياق نفسه- باعتباره محفلا سرديا يتيح إمكانيات متعددة للروائي في الانفصال عن نصه، إنّها لحظة المرور من استراتيجية الأنا إلى استراتيجية النص المعبر، حين يتحول نسيج الكتابة الروائية إلى جسد تعبر فوقه نصوص أخرى قديمة وجديدة خاصة وعامة، نثرية وشعرية، روائية وعبر أجناسية، وهي إن شئنا لحظة قتل المؤلف الفعلي من قبل السارد داخل نصه"[20].

أ- الكتابة والعنف في رواية " الخبز الحافي ":

يمكن للكتابة وهي تكتب العنف في منظور "حسن المودن " أن تأتي هي نفسها كتابة عنيفة مدمرة انقلابية انتهاكية، هذا ما اتسمت به رواية " الخبز الحافي" لـ " محمد شكري "، التي " لا تطمح إلى نقل العنف كما هو في العالم فقط، بل تطمح إلى الدخول في احتكاك عنيف مع العالم، ومن هنا تأتي الكتابة عنيفة، غريبة ومدهشة"[21].

ويتقاطع معه "سعيد بنكراد " في دراسته لرواية " الخبز الحافي"، التي يصف لغتها بأنها: " أداة فتك وتدمير لا يبقي ولا يذر، لقد سقطت بين يدي ذات تسكن الحدود، محرومة من الهوية والرغبة والمسكن القار، ذات تائهة وضائعة يختلط عندها الضحك والألم، تائهة ونافرة من كل شيء داخل عالم قذر، فحولتها إلى عين فقدت كل أشكال التوسط عدا الإبصار الذي يسجل العالم حافيا دون إضافات، وبعبارة أخرى إنّ الأمر يتعلق بالرغبة في العودة إلى الحياة إلى منابعها الأولى، حيث كل شيء عار ولا فواصل في الفعل واللغة بين الرغبة وتحققها"[22].

ولكن "حسن المودن" يناقض رأيه السابق، ويختزل رواية "الخبز الحافي" في بعدها المرجعي، في قوله "تصف واقع الجوع والجفاف والحرب، والعنف والقتل والموت في شمال المغرب أواسط القرن العشرين، وتدين واقع العنف والتهميش الذي عاشته فئات من المجتمع المغربي الحديث"[23].

وهذا مظهر آخر"من مظاهر الارتياب التي توافق كل نص روائي يرتكز على حياة مؤلفه، وشكل من أشكال التشكيك في قيمة ذلك النص الأدبية، وقد أدى هذا الموقف إلى التغاضي عن القيمة الأدبية في الرواية السير الذاتية، والنظر إليها على أنّها ظاهرة حضارية في المقام الأول، فجعل النقاد مبلغ همهم البحث عن التبريرات الاجتماعية والسياسية والحضارية، التي تفسر في رأيهم جنوح الروائي العربي إلى المزاوجة بين الرواية والسيرة الذاتية، مهملين ما كان أجدر في رأينا بالعناية والمعالجة من قبيل ضروب العلاقة بين الروائي والسير ذاتي، والخصائص الفنية ومميزات الدلالة"[24].

وفي السياق ذاته، يرى "حسن المودن " أنّ الأوتوبيوغرافي في رواية الخبز الحافي "يضيف إليها قوة المعيش وتلك القيمة التي تمنح للمرجعية، وأنّ الروائي يضيف بريق التخييل إلى الأوتوبيوغرافيا، ولا شك كذلك في أنّ الرواية الأوتوبيوغرافية تستدعي قراءة خاصة لا تأخذ النص على أنّه مجرد شهادة، وتأخذ بعين الاعتبار أنّ المعيش قد تمت صياغته روائيا"[25].

وهذا ما يجعل رواية "الخبز الحافي" نوعا جيدا من السيرة الذاتية في الأدب المغربي والعربي معا، لأنّ قبل "الخبز الحافي" كان هناك النمط السائد من السيرة الذاتية، وهو الذي كرسه "طه حسين" ورواية "الطفولة" لـ عبد المجيد بن جلون "في المغرب وكتاب" الزاوية "للتهامي الوزاني"، والجديد الذي جاءت به سيرة " الخبز الحافي " هو أنّها كسرت النمط التقليدي للسير الذاتية فهي أولا سيرة ناطقة باسم المهمشين، كما تمتلك من الجرأة ما يجعلها عملا فريدا في عالمنا العربي، هذه الجرأة تتمثل في ثلاثة أمور[26] هي:

1- تعرية الطابو المتعلق بالعلاقة مع الأسرة خصوصا العلاقة مع الأب.

2- اختراق الطابو المتصل بالتجربة الجنسية.

3- اختراق طابو تجارب العالم التحتي الذي عاش فيه "شكري" طفولته (عالم القمامات والتشرد).

لقد التزم حسن المودن في مقاربته لرواية " الخبز الحافي " بتفسير بنية النص الداخلية، فلم يبحث إذن عن علاقة النص بالسياقات الاجتماعية والثقافية، وإنّما اكتفى بالتفسير الداخلي للعمل الروائي الذي يتوافق مع المقاربة الموضوعاتية النفسانية، يقول في ذلك: "أليس هذا الفعل المادي الملموس فعل الكتابة فعل عنيف؟ ألا تتألم الصفحة البيضاء لأنّ هناك قلما؟ .... ألا تعني الكتابة اغتصابا لجسد صامت طاهر؟ "[27].

وبعيدا عن منطلقات التحليل النصي ومرجعياته، يستعين حسن المودن بحوارات الكاتب وتصريحاته، ليعود بنا إلى التحليل النفسي الفرويدي في تفسيره لعلاقة الكتابة بالعنف، يقول في ذلك: "يبدو كأنّ العنف الذي تستلزمه الكتابة هو أشبه بالعنف الذي تقتضيه العلاقة بالمرأة، أي أنّ العنف الذي يمارسه الإنسان – الريشة على الصفحة البيضاء ليس علامة على الظلم والقهر والقمع بل هو علامة على الحب والزواج، والجنس واللذة ونوع من الاحتكاك الطّبيعي بين جسدين، جسد راغب وجسد مرغوب فيه، وقد لا يخلو من لذة سادية لا شعورية"[28].

يستمدّ "حسن المودن" رؤيته لعلاقة الكتابة بالعنف من الفكر الفرويدي الذي يجعل من طاقة الليبيدو أو الطاقة الجنسية الدافع الأول لعملية الإبداع، كما أنّ الكتابة عند "شكري" هي عودة إلى فضاء الأم، بعيدا عن دلك الأب الوحش " فالعنف الموجود بين الإنسان والريشة والصفحة البيضاء كالعنف الموجود بين فم الطفل الرضيع وثدي الأم، والمحللون النفسانيون يعتبرون الصفحة البيضاء تلك المساحة من الجلد اللبني للثدي المغذي الذي يعتبر عند الإنسان أول مدرك حسيا ويعتبر الانفصال عنه أول عنف يمارس عليه صغيرا، ويعني هذا أنّ الصفحة البيضاء هي ذلك الثدي العزيز اللذيذ الذي كان الانفصال عنه عنيفا مؤلما، وأنّها هي التي تسمح لنا بعودة رمزية إلى ذلك الفضاء اللبني المفقود والمفتقد"[29].

وهنا يعيد إلى أذهاننا أقطاب المثلث الأوديبي: الأب، الأم، الابن، حيث تجمع الدراسات النفسية بعلم نفس الطفل، بأنّ هذا الأخير يعيش في بداياته الأولى حالة انصهار تام مع الآخر المتمثل في الأم، فالأم تعتبر امتدادا لجسد الرضيع وحالة اللاتميز ترافق الطفل حتى سن الثمانية أشهر، ولكن الأب لا يدخل طرفا ثالثا في هذه العلاقة الاجتماعية إلاّ مع المرحلة الأوديبية، فالطفل لم يعد ابن أمه أو كنز أمه الصغير، بل طفلا يعيش في عائلة لها اسمها ومركزها، وفي هذه المرحلة - وبالاعتماد على تحليلات فرويد- تكون عدوانية الطفل موجهة

نحو الأب، أمّا الصورة التي يحملها الطفل عن أبيه فهي صورة مزدوجة، فالأب يرمز من ناحية إلى القوة ومن ناحية أخرى إلى الكراهية [30].

وبناء على هذا، يصل "حسن المودن" إلى التأكيد على أنّ أهم عنصر مهيمن على البنية النفسية للسارد الشخصية أي"محمد" هو " كراهية الأب، وبعبارة أخرى "إنّ الجرح البنيوي المتجذر الذي يشكل الدافع الرئيسي إلى السرد والكتابة عند " محمد شكري "، هو هذا الأب الوحش والذي لا يعني حضوره المهيمن إلاّ غياب ذلك الأب الآخر، الأب الإنسان الذي لم يعرفه "محمد"، وبهذا فالكتابة قد نفهمها على أنها كتابة ضد الأب، وقد نفهمها كتابة تكتب غياب الأب وفقدانه"[31].

ويخلص إلى أنّ الكتابة في رواية "الخبز الحافي" تستلذ التدمير والتكسير والتهجين: تدمير الحدود بين أجناس القول والسرد والحكي، وانتهاك المواثيق السردية المألوفة والتعلق بالكلام السوقي العنيف، وإنتاج نص ببلاغة متوحشة لافتة، وكل ذلك مرتبط بالانفتاح على هذه الغيابات في الأدب العربي: الحسد، الجنس، الشذوذ الجنسي، العنف الأبوي[32].

4- المقاربة النفسانية الأسلوبية والمتن الروائي المدروس:

اعتمد "حسن المودن" في القسم الثاني من دراسته على المقاربة النفسانية الأسلوبية، بغية قراءة العمل الأدبي في حد ذاته، في أساليبه ومناهجه في الكتابة، وإعادة طرح الأسئلة من جديد: كيف يقول النص ما يقوله عن الإنسان؟ ماهي الأساليب والتقنيات السردية التي يستخدمها النص الأدبي والروائي من أجل قراءة الإنسان في واقعه النفسي؟ كيف تمارس الكتابة الأدبية والروائية خاصة تحليلها النفسي للشخصيات الروائية؟ [33].

ونوعز تبنيه للمقاربة الأسلوبية النفسانية إلى رؤيته للعمل الأدبي، الذي ينبني على لغة روائية خاصة تعبر عن الواقع السري للإنسان، وتقع بين الرغبة والمحكي وتسمح بإسماع كلام آخر غير الكلام المألوف، فاللغة الأدبية في منظور "حسن المودن " لا تجعلنا نسمع أصوات الآخرين فقط، بل هي اللغة الأخرى التي تكاد تتخصص في إسماع ذلك الآخر الموجود في الداخل، في داخل الذات (الكاتبة والقارئة) [34]. كما سمحت له المقاربة الأسلوبية " بالتقاط العلائق الحوارية المتبادلة لتلك اللغات، وإذا كان هناك خطاب مباشر للكاتب، فإنّ على التحليل الأسلوبي أن يكشف عن الخلفية الحوارية المتعددة اللغات"[35]، لذا لا يمكن الحديث عن جنس أدبي دون تحديد مكون مركزي يتمثل في اللغة ووظائفها، مستوى تطورها، وطراز تراكيبها وتشكلاتها، ودرجة استيعابها لأصوات متعددة.

تناول "حسن المودن" في القسم الثاني من دراسته ظاهرة تعدد الأصوات وتنوع اللغات والمحكيات في النص الروائي، لكونه خطابا موسوما بالانفتاح على باقي الأجناس واللغات والخطابات، فكان البحث عن بوليفونية المحكي في رواية الحي اللاتيني، والمونولوج الداخلي في رواية موسوم الهجرة إلى الشمال للطيب صالح، والمونولوج المسرود في روايات مبارك ربيع، كما استعان بالمقاربة النفسانية في بحثه عن محكي الأنشطة النفسية غير اللفظية في أخبار عزبة المنيسي ليوسف القعيد، وتعدد الأصوات في دم الوعول لمحمد عز الدين التازي، ليقف بعد ذلك على مظاهر الانزياح النوعي في روايات "فوزية السالم" وبلاغة الرّواية العائلية في رواية المنبوذ لعبد الله زايد.

كما تشترك النماذج الروائية المدروسة في تعدد مستوياتها الأسلوبية، وبنيتها السردية القائمة على التعددية الصوتية والحوارية، الممثلتين من خلال حضور النصوص الخلفية أكثر من قيامها على تعددية أسلوبية لغوية محددة. لأن "اللغة المستهدفة في المقاربة النفسانية الأسلوبية هي اللّغة المشحونة بالأبعاد النفسية فهي إذن ليست اللّغة النّسق ذات البنية السّاكنة والثّابتة، بل اللّغة الحوارية المحملة بالقصدية والوعي والأيديولوجيا التي تكشف لنا عن مختلف أشكال الوعي وأنماط العلائق القائمة بين الشخوص وعن القصدية المحركة لسلوكاتهم وأفعالهم"[36].

أ- التّحليل النّفسي للأنا وبوليفونية المحكي في رواية الحي اللّاتيني:

تبنى "حسن المودن " في دراسته لرواية " الحي اللاتيني " لسهيل إدريس المقاربة النفسية الأسلوبية، محددا من خلالها إطار دراسته وحدودها في قوله: " نحن لسنا أمام نص من نصوص أدب الرحلة التقليدية لأنّ ما يهم في الحي اللاتيني ليس هو العالم الخارجي الجديد (باريس، الحي اللاتيني)، بل إنّ الأكثر أهمية هو علاقة هذا العالم الجديد بداخلية الشخصية المحورية ونفسيتها، ولذلك فحكاية الداخل في هذه الرواية أهم من حكاية الخارج"[37].

وهذا ما يجعل منها النموذج الأنسب للمقاربة النفسية الأسلوبية، فهي من" الروايات الأولى التي مارست التحليل النفسي للشخصية بالكثير من العمق والفعالية، وهو ما دفعها إلى مساءلة العلاقة بين السارد والشخصية والبحث عن أشكال سردية تكون قادرة على جعل حضور الآخر ملموسا، أي تقنية قادرة على أن تمنح الشخصيات المحورية وجودا مستقلا ليس من خلال رسائلها ومذكراتها فقط، بل وأساسا من خلال المحكيات النفسية

والمونولوجيات الدّاخلية التي تعطي الجزء الأكبر من الرواية، ويصعب في أغلبها التمييز بين صوت الشخصية وصوت السّارد والفصل بينهما" [38].

لذا تناول "حسن المودن " في دراسته لها التّحليل النفسي للأنا التي تعيش صراعا داخليا، كما تطرق إلى بوليفونية المحكي في الرواية، وبحث عن الأساليب والتقنيات الجديدة التي ساهمت في تشخيص العالم الفني للشخصيات، والتي تحقق بها الخطاب الدّاخلي للشّخصية.

وإذا كان " حسن المودن " يتفق مع" جورج طرابيشي " في تحديد مركز الصراع في رواية " الحي اللاتيني "، والذي يتركز في "العلاقة الحضارية بين الشرق والغرب من خلال العلاقة الجنسية بين المثقف الشرقي والمرأة الغربية" [39]، إلاّ أنّه يختلف معه في عمقه وتحديد بؤرته، التي" تنتمي إلى العالم الداخلي للشخصية، فالقارئ يجد نفسه على طول الرواية ومنذ صفحاتها الأولى داخل صراع داخلي مرير، بين أنا تبحث عن عالم جديد رسمته في خيالها وصار حقيقة وواقعا بعد الاستقرار في الحي اللاتيني، وهي تريد هذا العالم الجديد بديلا عن عالمها العائلي الأصلي، وبين أنا لا تريد أن تهرب عن عالمها الأول وتحس تجاهه بالمسؤولية وتريد أن توجهه وأن تعمل على تغيير ما تراه فيه غير مناسب"[40].

كما يربط "حسن المودن " بين صراع الأنا الداخلي وبين المستويات الأسلوبية في النص الروائي، فالآخر هو" هذه الأصوات الخفية التي تفكر وتحب وتتكلم في دواخلنا، وهذا ما يفسر تعدد الضمائر داخل الرواية وتداخل الأجناس داخل الجنس الواحد (بيوغرافيات، أوتوبيوغرافيات، مذكرات، رسائل) وهو ما يفسر هيمنة المحكيات النفسية والمونولوجات الداخلية على المحكي في الجزء الأكبر منه"[41].

يحدّد "حسن المودن " الأشكال والصيغ التي يتحقق بها الخطاب الداخلي في رواية الحي اللاتيني، وهي المحكي النّفسي والمونولوج الداخلي، يستمد " المودن " مصطلح المحكي النفسي من الناقدة الهولندية " دوريت كوهن " التي ضمت في كتابها الموسوم بـ " الأذهان الثقافية " ثلاثة أنماط خطابية السرد النفسي أول هذه الأنماط، ووصفته بأنّه خطاب الراوي عن الحياة الباطنية للشخصية، المحكي الذي يقوم به السارد لحركات الحياة الداخلية التي لا تعبر عنها الشخصية بالضرورة بواسطة الكلام، إنّه يكشف عما تشعر به الشخصية دون أن تقوله بوضوح أو عما تخفيه عن نفسها[42]، إنّها التقنية الأساسية لاستكشاف الروح وكل ما ينتاب دواخلها، فالمستوى الذي يقوم عليه "أسلوب السرد

النفسي ويؤطر علاقته بالشخصية الروائية هو مستوى ما تفكر به الشخصية الروائية إلى جانب مستويي (ما تراه) و(الحركة الخارجية)، وتتضافر هذه المستويات الثلاثة للعمل بشكل متكامل مما يعطي للألفاظ دلالات خاصة"[43].

وفي السياق ذاته، يؤكد على فعالية المحكي النفسي في رسم شخصيات قدراتها في القول والتعبير محدودة ومقيدة، وتحتاج إلى وساطة سردية في شكل تحليل متقطع للدوافع السردية، التي تفسر حركات وكلمات ومشاعر الشخصية، والسارد هنا لا يعتبر الخارج مستقلا عن الداخل، بقدر ما يسعى إلى تشخيص التوتر والتعارض القائم بينهما، واعتبار حركات الشخصية وأفعالها وسلوكاتها الخارجية غير منفصلة عن حياتها النفسية الداخلية[44]، وهذا ما يتجلى في المقطع الآتي من رواية الحي اللاتيني: "ونهض من سريره ثائر الأعصاب. نقطة الماء. نقطة الماء هذه التي تسقط في المغسلة تثير حنقه بصوتها الرتيب. إنها تسقط كل عشرين ثانية تقريبا. وكلما سقطت كان لصوتها نقرة تحدث في فكره ثغرة جديدة تقطع سلسلة أفكاره"[45].

ومن الصيغ التي يتحقق بها الخطاب الداخلي في رواية الحي اللاتيني "المونولوج الداخلي"، الذي يعتبره "حسن المودن " شكلا أدبيا له علاقة وثيقة بالفكر، بما أنّ دوره الأساس هو نقل الأفكار الداخلية الشخصية، وهو بهذا يسمح بكشف الصّراعات والتّناقضات والتّحولات التي يعبر فيها فكر الشخصية الداخلي، واللافت للنظر أنّ الأنا التي تفكر ليست واحدة موحدة، بل هي تنقسم وتتفكك أحيانا إلى أصوات متعارضة متناقضة، ويخلص "حسن المودن " إلى أنّ المونولوج الدّاخلي يطبع المحكي بطابع بوليفوني لم يكن مألوفا في الرّواية التّقليدية[46]، ولا ينبغي أن يفهم من الطابع البوليفوني في الرواية هو" تعدد خصائص الشخصيات فحسب، بل إنّ المقصود بذلك هو تعدد أشكال الوعي داخل النص الروائي، فالصوت وفق هذا التصور لا ينظر إليه من الناحية الفيزيائية ولكن من زاوية تعدد الوعي لديه، يتعلق الأمر هنا قبل كل شيء بحرية واستقلال الشخصيات في الرواية بالمقارنة مع الكاتب"[47]. ويستشهد "حسن المودن" بهذا المقطع الروائي الذي يكشف فيه الصوت الداخلي للشخصية، لكنه الصوت الذي ينقسم إلى صوتين يتجادلان ويتحاوران " ولكن لماذا قدم إلى باريس في الحق؟ أفرار من... الخطيئة نفسها. أخرس هذا الفضول، إنّك الآن في باريس، حسبك هذا، أتيت فلا تسل لم أتيت. عش قليلا دون ما تفكير وتدبير، عش بوهيميا. لعلّك تدرك فيما بعد السبب العميق لمجيئك، ربما تدرك ذلك إذ تعود إلى بلادك[48].

خاتمة:

تتميز الكتابة النقدية عند حسن المودن باستثمارها لآليات التحليل النفسي الذي يختلف في مقاصده عن المنهج النفسي البيوغرافي، وانفتاحها على المناهج النصية وطرح الأسئلة الجوهرية واستحضار القارئ أو المتلقي، كما امتازت النماذج الروائية المدروسة بلغتها الروائية المشحونة بالأبعاد النفسية، وبأنماطها المتعددة التي عبرت عن مكوناتها وتحولاتها عبر ملفوظات اللاوعي وفضاءات الحلم والتخييل، والمحكيات النفسية والمونولوجات الداخلية، فكانت بذلك، نماذج روائية ملائمة لتطبيق النظريات اللسانية والنصية والتلفظية.

لقد أثار " حسن المودن " في كل نص روائي أسئلة كثيرة حفزت القارئ على التفكير في الأسس النظرية للكتابة، ووقفت على فراغاتها وبياضاتها، وهذا ما يتوافق مع تحولات النصوص الروائية وبناها السردية القائمة على التعددية الصوتية والحوارية، حيث صارت كل رواية في حدّ ذاتها تجربة سردية خاصة لا علاقة لها بغيرها من التجارب إلاّ في السّمات العامّة.

مراجع البحث وإحالاته:

1. ينظر محمد أمنصور: خرائط التجريب الروائي، مطبعة أنفوبرانت ، فاس، المغرب، ط. 1، 1999، ص: 32.

2. ينظر محمد أمنصور: محكي القراءة، منشورات مجموعة من الباحثين الشباب في اللغة والآداب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، المغرب. د. ط، 2007، ص: 94

3. حسن المودن: التحليل النفسي للأدب " فرضياته، مناهجه، حدوده، آفاقه "، مجلة البيان الكويتية، ع 338، سبتمبر 1998، ص 31. تم تنزيله من الموقع الإلكتروني: أرشيف المجلات.

.https: //archive. alsharekh. org

4. ينظر أنور عبد الحميد موسى: علم النفس الأدبي " منهج سيكولوجي في قراءة الأعماق "، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط. 1، 2011، ص: 18.

5. حسن المودن: الرواية والتحليل النصي " قراءات من منظور التحليل النصي " الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط. 1، 2009، ص: 7.

6. المصدر نفسه، ص: 8

7. المصدر نفسه، ص: 10

8. حميد لحمداني: النقد النفسي الأدبي المعاصر: " تطبيقات في مجال نقد السرد " أنفوبرانت للطباعة والنشر، فاس، المغرب، ط. 2، 2018، ص: 28.

9. حسن المودن: الرواية والتحليل النصي، ص: 11.

10. حميد لحمداني: النقد النفسي الأدبي المعاصر، ص: 47.

11. حسن المودن: الرواية والتحليل النصي، ص: 13.

12. ينظر حميد لحمداني: النقد النفسي الأدبي المعاصر، ص: 46.

13. حسن المودن: التحليل النفسي للأدب" فرضياته، مناهجه، حدوده، آفاقه "، مجلة البيان الكويتية، رابطة الأدباء في الكويت، ع338، سبتمبر، 1998، ص: 27

14. ينظر حسن المودن: الرواية والتحليل النصي، ص: 16.

15. ينظر أنور عبد الحميد موسى: علم النفس الأدبي، ص: 17

16. ينظر حسن المودن: الرواية والتحليل النصي، ص: 22

17. حسن المودن: التحليل النفسي للأدب " فرضياته، مناهجه، حدوده، آفاقه "، مجلة البيان الكويتية، ص: 23.

18. ينظر حسن المودن: الرواية والتحليل النصي، ص: 9

19. عبد الحميد عقار: الرواية المغاربية " تحولات اللغة والخطاب"، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ط. 1، 2000، ص: 24.

20. محمد أمنصور: خرائط التجريب الروائي، ص: 33.

21. حسن المودن: الرواية والتحليل النصي، ص: 28.

22. سعيد بنكراد: هوامش اللغة، الخبز الحافي والعوالم العارية، مجلة آفاق، منشورات إتحاد كتاب المغرب، المغرب، العدد 77، 78، يناير 2010، ص: 72تم تنزيله من الموقع الإلكتروني: أرشيف المجلاتhttps: //archive. alsharekh. org

23. حسن المودن: الرواية والتحليل النصي، ص: 27.

24. محمد آيت موهوب: الرواية السير ذاتية في الأدب العربي المعاصر، تقديم محمد القاضي، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الأردن، ط. 1، 2016، ص: 441.

25. حسن المودن: الرواية والتحليل النصي، ص: 35.

26. ينظر المهدي أخريف: الخبز الحافي جرأة الكاتب والكتابة، مجلة مجره، دار البوكيلي للطباعة والنشر والتوزيع، المغرب، العدد7 ، 1 حويلية 2003، ص: 168.

27. حسن المودن: الرواية والتحليل النصي، ص: 32.

28. المصدر نفسه، ص: 33.

29. المصدر نفسه، ص: 33.

30. ينظر محمد الكشبوري: صورة الأب من خلال الخبز الحافي لمحمد شكري، مجلة الآفاق، مجلة ثقافية جامعة سليانة، تونس جوان 1994، ع 50، ص: 92تم تنزيله من الموقع الإلكتروني: أرشيف المجلات.
https: //archive. alsharekh. org/

31. حسن المودن: الرواية والتحليل النصي، ص: 33.

32. ينظر المصدر نفسه، ص: 36

ينظر المصدر نفسه، ص: 10. 33

34. ينظر المصدر نفسه، ص: 10.

35. ميخائيل باختين: الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ط. 1، 1987، ص: 163، 166.

36. عبد المجيد حسيب: حوارية الفن الروائي، منشورات مجموعة الباحثين الشباب في اللغة والآداب، كلية الآدب والعلوم الإنسانية، مكناس، المغرب، د. ط، د. ت، ص: 30.

37. حسن المودن: الرواية والتحليل النصي، ص: 147

38. المصدر نفسه، ص: 148

39. جورج طرابيشي: شرق غرب، رجولة وأنوثة، " دراسة في أزمة الجنس والحضارة في الرواية العربية"، دار الطليعة، بيروت، ط. 4، 1997، ص: 71.

40. حسن المودن: الرواية والتحليل النصي، ص: 147

41. المصدر نفسه، ص: 148

42. ينظر مجموعة من المؤلفين: نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير، ترجمة ناجي مصطفى، دار الخطابي للطباعة والنشر، المغرب، ط. 1، 1989، ص: 108.

43. شيماء حسن جبر الساعدي: السرد النفسي في الرواية العراقية الحديثة (2003، 2015م)، أطروحة دكتوراه، إشراف الأستاذ الدكتور سمير كاظم الخليل، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، العراق، 2018، ص: 7

44. ينظر حسن المودن: الرواية والتحليل النصي، ص: 150.

45. سهيل إدريس: رواية الحي اللاتيني، دار الآداب، بيروت، شركة النشر والتوزيع المدارس، ط. 15، 2007، ص: 23.

46. ينظر حسن المودن: الرواية والتحليل النصي، ص: 154.

47. عبد المجيد حسيب: حوارية الفن الروائي، ص: 41.

48. سهيل إدريس: رواية الحي اللاتيني، ص: 10.

قائمة مصادرومراجع البحث:

أ- مصادرومراجع باللغة العربية:

1. إدريس، سهيل: رواية الحي اللاتيني، دار الآداب، بيروت، شركة النشر والتوزيع المدارس، ط. 15، 2007.

2. أمنصور محمد: خرائط التجريب الرّوائي، مطبعة أنفوبرانت، فاس، المغرب، ط. 1، 1999.

3. أمنصور محمد: محكي القراءة، منشورات مجموعة من الباحثين الشباب في اللغة والآداب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، المغرب، د. ط، 2007

4. آيت موهوب، محمد: الرواية السير ذاتية في الأدب العربي المعاصر، تقديم محمد القاضي، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الأردن، ط. 1، 2016.

5. الحسيب، عبد المجيد: حوارية الفن الروائي، منشورات مجموعة الباحثين الشباب في اللغة والآداب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، المغرب، د. ط، د. ت

6. طرابيشي، جورج: شرق غرب، رجولة وأنوثة "دراسة في أزمة الجنس والحضارة في الرواية العربية"، دار الطليعة، بيروت، ط. 4، 1997

7. عقار، عبد الحميد: الرواية المغاربية" تحولات اللغة والخطاب"، شركة النشر والتوزيع، المدارس، الدار البيضاء، ط. 1، 2000.

8. لحمداني، حميد: "النقد النفسي الأدبي المعاصر" تطبيقات في مجال نقد السرد، أنفوبرانت للطباعة والنشر، فاس، المغرب، ط. 2، 2018

9. المودن، حسن: الرواية والتحليل النصي " قراءات من منظور التحليل النصي"، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف دار الأمان، الرباط، المغرب.

10. موسى، أنور عبد الحميد: علم النفس الأدبي، منهج سيكولوجي في قراء الأعماق، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط. 1، 2011

ب- مراجع مترجمة:

1. باختين، ميخائيل: الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، دار الفكر للدراسات والتوزيع، القاهرة، ط. 1، سنة: 1987.

2، مجموعة من المؤلفين: نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير، ترجمة ناجي مصطفى، دار الخطاب والنشر، المغرب، ط. 1، 1989.

جـ الرّسائل الجامعية:

1. السّاعدي، شيماء حسن جبر: السرد النفسي في الرواية العراقية الحديثة " 2003، 2015" أطروحة دكتوراه، إشراف الأستاذ الدكتور سمير كاظم الخليل، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، العراق، 2018

د. المو اقع الإلكترونية:

1. موقع أرشيف المجلات https: //archive. alsharekh. org/